الفصل الخامس

الحروب الصليبية (١٠٩٥ - ١٢٧٢)

بقلوب تملؤها الحماسة المسيحية، وبرايات خفاقة وألوية مشرعة فى الفضاء – مضى الصليبيون الغربيون صوب الشرق بموجب مرسوم البابا وأمره فى القرن الثانى عشر الميلادى بتحرير الأراضى المقدسة وتخليصها من قبضة الكافرين (المسلمين) ... تمثل تلك المشاهد ومثيلاتها جزءا من أسطورة التاريخ الغربى. أفليس الإسلام ضد الغرب؟! بالنسبة للكثير من الأصوليين، مسيحيين ومسلمين، تؤرخ الحملات الصليبية لبداية صراع الحضارات. بيد أنه إذا ألقينا نظرة أعمق وأشمل، لاتضح أن الأمر ينطوى على ملامح أكثر تعقيدا. فهل نحن نتحدث، بالفعل، عن صراع للحضارات – باعتباره طورا آخر من أطوار "الصراع الأزلى" بين الإسلام والغرب؟ أم أنه ربما يكون هناك ما هو أكثر تعقيدا يجرى بالفعل؟

obeikandl.com

سيناقش هذا الفصل كيف كان الدين الخلفية المصورة والرواية الشائعة والمسوغ لما كان خطوة جيوبوليتيكية كبرى من قبل الغرب حين أرسل جيوشه صوب الشرق. فهل كان يمكن أن تكون ثمة حروب صليبية فى الأراضى المقدسة ما لم يكن ثمة "إسلام"؟...

فلننظر بعمق إلى هيكل الأحداث والعلاقات، فلعل الإجابة تكون غير متوقعة.

إذاً، ما الحدث التاريخى شديد الصلة بالدين غير "الحروب الصليبية"؟ لقد لاحظ المؤرخون نموا عاما فى "التقوى" فى أوروبا فى القرن الحادى عشر الميلادى، والذى سرعان ما وظفته الكنيسة لصالحها. ولقد انطوت "المغامرة" على بعد رؤيوى، إذ آمن الكثيرون بأن تأسيس دولة مسيحية فى أورشليم ثانية قد يتواكب مع نهاية الزمان – وهى رؤية سائدة واعتقاد شائع. فلأول مرة فى أوروبا، بزغ وعى جديد

بوجود "عالم مسيحى" قائم، حين شرع الواعظون فى إخبار العامة بوجود "آخر" وثنى فى الشرق الأوسط – وهو طرح لم يكن شائعا فى فترات التاريخ الأوروبى المبكرة المتسمة بالظلامية والعزلة الشديدة.

وقد شجعت الكنيسة الرجال على تسجيل أسمائهم "كجنود الكنيسة" للقتال لتوسعة رقعة الأراضى المسيحية. وتسرد الروايات التاريخية الطقوس المهيبة والجليلة لمراسم تسجيل الأسماء، حيث كان كل مقاتل يقسم يمينا بأن يواصل المسيرة نحو أورشليم ليتلقى هناك صليبا من ممثل البابا تقديرا لمكانته كجندى من جنود الكنيسة. وقد أعفى المسجلة أسماؤهم من التقاضى المدنى خلال فترة الخدمة تلك. كذلك، فقد شغلت اعتبارات يوم القيامة الكثيرين – وبخاصة كيف يمكن أن يحظى المرء بمغفرة ذنوبه ... يكمن ذلك فى مجرد الانضمام والانخراط فى مجريات الحروب الصليبية؟ فإذا ما انخرط المرء، هل ستقتصر الذنوب التى سيتم غفرانها

obeikandl.com

على تلك المقترفة قبل لحظة الرحيل للانخراط فى تلك الحروب، أم سيتم غفران جميع الذنوب اللاحقة إلى الأبد؟ وهل على المرء حقا أن يموت ليحظى بالمغفرة؟ كذلك، فبعد أن يتم إنقاذ أورشليم، هل سيظل الباب مشرعا لغفران الخطايا والذنوب، أم أنه سيغلق ثانية؟

تلك كانت أسئلة محيرة واجهت المتطوعين للانخراط فى الحروب الصليبية، ربما كانت شبيهة للغاية بتلك الجدالات الدائرة اليوم بين بعض المسلمين الأصوليين عما يمكن أن يطلق عليه، وبحق، "الموت كشهيد". إن الشهادة، فى واقع الأمر، تشير بالتحديد إلى التضحية بالنفس دفاعا عن الدين ونصرته، والعمل على نشر رسالته. ولكن، إذا قام أحدهم بعملية انتحارية ضد العدو -الأمر الذى يحرمه الإسلام- فهل يعد ذلك الموت الذى جره المرء على ذاته "شهادة حقة"؟

نداء البابا «ايربان» الثانى

إن الجدل حول الطابع الدينى للحروب الصليبية لا يمكن استحضاره بأفضل من خطاب البابا ايربان الثانى للعامة فى مجمع "كليرمون" فى عام ١٠٩٥، إذ يعد وثيقة غربية مبكرة على درجة عالية من الأهمية تناشد المسيحيين للجهاد ضد الشرق المسلم (الكافر)، على أنه لا توجد سجلات دقيقة لما قاله ايربان تحديدا، وإنما شذرات لقادة شتى من الحضور، على ما بها من اختلافات وتباينات. ولكن المهم فى الأمر هو البلاغة الخطابية، إذ نشهد إرهاصات لما أطلق عليه لاحقا "صراع الحضارات" الذى طال كلاً من المسيحيين والمسلمين. وتدرك "نكهة" آراء البابا وتعليقاته من بعض الفقرات المنتقاة من واحد فقط من المراقبين العديدين، فولشر من شارتر، مقتبسا ومجليا مخاوف البابا من غزو المسلمين للغرب :

فكما سمع معظمكم، فقد هاجم الأتراك والعرب "البقاع المقدسة" وغزوا أراضى الإقليم ... حتى وصلوا غربا إلى شواطئ المتوسط والدردنيل ... كذلك فقد قتلوا وأسروا أعدادا كبيرة، ودمروا الكنائس وخربوا الإمبراطورية. فإذا ما تركوا

ليواصلوا ما هم عليه بلا رادع، فإن خلصاء الرب ستتم مهاجمتهم على نحو كبير لا محالة. وفى هذا الخصوص، فأنا ألتمس، بل إن الرب ليطلب، منكم كجند المسيح ورسله نشر كلمتى هذه فى كل مكان، وإقناع جميع البشر أياً من كانت رتبته أو مركزه، ... المشاة والفرسان، الفقراء والأغنياء، أن يدعموا هؤلاء المسيحيين على الفور، وأن يدمروا هذا الجنس الخبيث ويجلوهم عن ديار أصدقائنا وأراضيهم. لقد أبلغت الحاضر، وليبلغ الحاضر الغائب. فذلك أمر المسيح.

فما أشأمه من خزى، وما أذله من عار لو تمكن هذا الجنس الوضيع الحقير العابد للطاغوت – من هزيمة الشعب المؤمن بالله وصاحب المجد بكلمة المسيح.

فليهب أولئك الذين درجوا على السرقة لأمد طويل ليصبحوا الآن فرسانا ... وليهب أولئك الذين كانوا يقاتلون إخوانهم وذويهم ليقاتلوا بمجد وفخار أولئك الهمج.

ولعل السمة اللافتة فى خطاب البابا، على اختلاف رواياته، هى اختفاء لفظة "المسلمين" و"الإسلام" تماما. إذ كانت الإشارات إلى "وثنى"، و"كافرين"، و"الأتراك"، و"العرب" الذين قمعوا إخواننا المسيحيين وعاثوا فسادا فى "الأراضى المقدسة". أما السلطات المسيحية فلم تشر إلى هؤلاء حتى بأنهم "مسلمون" – بما للكلمة من دلالة سلبية. إذاً، يتم النظر إلى العدو صراحة، ونعته وفقا لمصطلحات إثنية، أو بأنه كافر، أو بأنه مضطهد للمسيحيين. فأى دين يعد، إذاً، من تلك الوجهة، ممارسة وثنية.

مذبحة اليهود

فى ندائه بمجمع "كليرمون" لحملة صليبية، أشار البابا ايربان الثانى، على نحو متواتر، إلى "الكافرين" بأنهم العدو. بيد أن هذا قد يتضمن المسلمين واليهود. وقد كانت معاداة السامية، بالفعل، ظاهرة مألوفة فى أوروبا، حيث اعتبر اليهود، بشكل عام، "قتلة المسيح". ونتيجة لذلك، وحتى قبل أن يغادروا أوروبا فى مهمتهم،

طافت فرق الصليبيين أراضي واسعة من ألمانيا، وبخاصة وادى "الراين"، حيث خير اليهود ما بين التحول إلى اعتناق المسيحية أو الموت. ووفقا لهذا الشرط، تم قتل نحو اثنى عشر ألف يهودى، فضلا عن قيام عدد من الجماعات اليهودية بعمليات انتحار جماعية لقتل أنفسهم، وذلك على نطاق واسع.

وبذا، فقد أدى نداء البابا إلى تعظيم شأن العنف ورفعته فى سبيل الأهداف السامية، كما رسم صورة للعطايا والنعم فى الآخرة لقاء قتل جميع غير المسيحيين. كذلك، فمن المذهل أنه بينما لم يضمن البابا المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين فى عداد الكافرين، على المستوى الشعبى، إلا أن الكثير من المسيحيين الأوروبيين كانوا ينظرون باقتناع إلى المسيحيين اليونانيين على أنهم كافرون أيضا، خاصة بعد "مذبحة اللاتينيين" التى اقترفت فى القسطنطينية فى عام ١١٨٢، بعد قرابة مائة عام من الحملة الصليبية الأولى.

وعلى أية حال، فإن الاستجابة الشعبية الواسعة لنداء البابا كان قوامها عدد قليل من الفرسان فى مقابل حشود كبيرة من العامة الذين تطوعوا للقيام بالرحلة الشاقة، بما فيهم أعداد كبيرة يفتقرون إلى أية مهارات قتالية، ويجهلون المهام العسكرية الفعلية التى عليهم إنجازها. كذلك، فقد انضم إلى تلك الحشود أعداد ضخمة من النساء والأطفال. ولم تكن تلك الجماعات تعدو إلا أن تكون حشدا من الغوغاء عديمى المهارة، لا ينتظمهم رابط حاكم سوى أحلامهم الرؤيوية بالخلاص، ورغبتهم فى الانعتاق من مآسى الحياة اليومية داخل أراضيهم وبلدانهم. وبالفعل، فقد كشفت أفعالهم وأبانت سلوكياتهم أثناء رحلتهم تلك عن طبائعهم وحقيقة شخصياتهم. فقد وجدت تلك "الحملة الشعبية" نفسها منخرطة فى مواجهات مع مسيحيين آخرين حتى عند اجتيازهم أراضى مسيحية فى البلقان. فعقب عقود قليلة تلت "الصدع الكبير" ما بين روما وبيزنطة فى عام ١٠٥٤، كان المسيحيون الأرثوذكس الشرقيون ينظر إليهم نظرة دونية ويوضعون فى مرتبة أدنى. ولقد فطن الإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية إلى خطورة تلك الحركات الغوغائية منفلتة

العقال، إذ بينما كانوا يتقدمون صوب المدينة، حرص الإمبراطور على جعلهم يسرعون خارج حدود المدينة تلقاء أجزاء الأناضول المسيطر عليها من قبل الأتراك. وما حدث بالفعل أن الكثير من تلك الحشود الشعبية لم تصل أبدا إلى أورشليم، إذ هلكوا جراء الأمراض والمشقة الهائلة، أو أبيدوا على أيدى الأتراك فى القسطنطينية.

أما أولئك الذين دخلوا بالفعل الأراضى المقدسة فكانوا، فى غالبيتهم، جاهلين، متخبطين لا يهتدون، مفتقرين إلى وجهة سليمة، متضورين فى بعض الأحيان، يأتون بأعمال عنف وحشى خلال غزو المدينة الشرقية بقتلهم لأغلب سكانها، وتدميرهم للمساجد ونهبهم للمدن. كذلك، فقد انخرطوا فى العديد من الانتهاكات التى رصدت كأكلهم لحوم البشر على ما ذهب إليه الغربيون أنفسهم :

فقد كتب رادولف من "كاين"، وهو شاهد عيان على ما حدث فى معرة النعمان فى عام ١٠٩٨، : "فى المعرة، قامت القوات بوضع الوثنيين البالغين على قدور تغلى، وقامت بوضع الأطفال فى سفود والتهمتهم بعد شيهم".

أما المؤرخ ألبير من "ايكس"، فقد وضع المسلمين فى مرتبة الكلاب، إذ كتب : "لم تأنف قواتنا من أكل لحم الأتراك والعرب المسلمين أمواتا، فقد أكلت الكلاب من قبل".

لقد مثلت تلك الحملة الصليبية "الشعبية" أول مواجهة عسكرية بين الغرب الأوروبى والشرق الأوسط، عدا الأندلس فى أقصى الغرب، حيث امتد الحكم العربى لها طيلة ثمانية قرون. كذلك، فقد أرخت الحروب الصليبية لغزو الغرب الأوروبى لإقليم الشرق الأوسط بما له من آثار قائمة حتى الآن.

أما فى الحملات المتأخرة، فقد لبى نداء الذهاب إلى أورشليم فرسان أكثر دربة وحنكة. بيد أن تلك القوات العسكرية ذات الخبرة نفسها كانت مصدر تهديد لبيزنطة بقدر ما كانت كذلك للمسلمين : فقد كانت تصول وتجول فى أرض بيزنطية،

ولكن بعيدا عن سيطرة بيزنطة. وسرعان ما تحققت مخاوف بيزنطة فى الحملة الصليبية الرابعة.

فحين وطئت أقدام الحملة الأولى أراضى أورشليم فى عام ١٠٩٩، فإن ذلك الغزو كان عملا وحشيا عنيفا، فى تناقض صارخ مع الكيفية والسلوك الذى فتح بهما العرب المدينة قبل نحو خمسة قرون. ففى عام ٦٣٧، ترد إلى الأذهان كيف دخل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب بنفسه المدينة بعد حصار دام لعدة أشهر، وكيف حافظت القوى العربية على انضباطها العسكرى، وكيف لم تنهب المدينة أو تسلب، وذلك وفقا للمعاهدة التى أبرمها الخليفة مع بطريرك أورشليم حين استلامها. وفيما يرتبط بالنصارى، فقد جاءت المعاهدة لتؤكد على :

"أن تترك الكنائس والصوامع ودور العبادة كما هى، فلا تسلب، ولا يتم تدميرها، ولا تتعرض لأى انتقاص أو حط من قدرها، وكذلك الأمر بالنسبة للصليب والأموال، ولا يجبر النصارى على ترك دينهم وتغيير ملتهم، وألا يؤذى أحد منهم أيا من كان".

وقد أشارت المصادر اليهودية إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد راعه ما آل إليه المعبد اليهودى من دمار، إذ صارت أطلاله تؤوى ركاما من النفايات خلال العهد الرومانى، فالموقع له قدسيته أيضا لدى المسلمين. ويذكر أن الخليفة ذاته، وبمعاونة رجاله، قد قام بتنظيف المكان بيديه. وقد سمح لليهود بممارسة عقيدتهم وطقوسهم الدينية فى المدينة للمرة الأولى منذ أن طردهم الرومان منها قبل نحو خمسة قرون.

على أن دخول الحملة الصليبية الأولى أورشليم فى عام ١٠٩٩ كان مختلفا تماما. فقد حارب اليهود، الذين خشوا قدوم الحكم المسيحى، جنبا إلى جنب مع المسلمين دفاعا عن المدينة، ولكن بلا جدوى. فبعد حصار طويل ومكلف، دخل الصليبيون المدينة فى الخامس عشر من تموز/يوليو، وقاموا، خلال أربع وعشرين

ساعة فقط، بقتل كل سكانها -الرجال، والنساء، والأطفال، والمسلمين، واليهود، ومعظم المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين- وكان عدد القتلى نحوا من ستين ألف فرد، بمن فيهم آلاف اليهود الذين لانوا والتجأوا إلى معبدهم، وآلاف أخر من المسلمين فى المسجد الأقصى. وقد أشارت دائرة المعارف الكاثوليكية، فى تقدير محكم لها، إلى أن "المسيحيين قد دخلوا أورشليم من كل الجهات، وذبحوا أهلها دونما أدنى اعتبار لأعمارهم، ودون تفرقة بين رجل أو امرأة".

وقد كتب فولشر من شارتر، وهو صليبى شارك فى تلك الحملة "حقا، فإذا ما كان لك أن تشهد ما جرى، لرأيت أقدامنا وقد اصطبغت بلون دماء القتلى. ولكن، من أين أبدأ روايتى؟! فلم يترك ساكن من أهل المدينة إلا وقتل، حتى النساء والأطفال لم ينجوا من تلك المذابح".

وتوجد العديد من الروايات الأخرى حول العنف والوحشية المفرطة التى أنزلها الصليبيون بالمدن الإسلامية وأهلها فى طريقهم إلى أورشليم. على أنه لمن السذاجة الاعتقاد بأن مظاهر الوحشية والدمار كانت حكرا على طرف واحد دون غيره، فالحروب على مر العصور تتسم بالوحشية. إذا، فلا يفهم من إيرادنا هنا لبعض من الروايات المنتقاة أن الصليبيين كانوا أشرارا، فيما كان المسلمون مجرد ضحايا أبرياء. ولكن القوى الأوروبية، آنذاك، كانت بالفعل تجتاح القلب من الشرق الأوسط. وكانت تلك هى بداية تاريخ طويل من التدخل الأوروبى المسلح فى الشرق الأوسط لقرون عديدة لاحقة. إن العقلية الدموية للصليبيين أنفسهم نادرا ما يشار إليها فى الأقاصيص الشعبية عن فروسية الصليبيين وشهامتهم. كذلك، يوجد تناقض صارخ بين المناحى الدينية والقانونية فيما بين الفتح الإسلامى لأورشليم فى عام ٦٣٧، والاجتياح المسيحى لها فى عام ١٠٩٩ . فالمسلمون، وفقا للعقيدة الإسلامية، مطالبون باحترام مكانة اليهود والمسيحيين داخل المجتمعات الإسلامية، وهو ما قاموا به، على نحو كبير (بالرغم من وجود حالات أخرى، بطبيعة الحال، لم يراع المسلمون فيها التقيد والالتزام بتعاليم دينهم)، وبالمقابل، فلم يكن المسيحيون

مطالبين، وفق عقيدتهم، باحترام مكانة اليهود والمسلمين داخل المجتمع المسيحى، وبالفعل لم يقوموا باحترامها. وأخيرا، فالغرب بحاجة إلى أن يفطن إلى الرؤية العكسية للمسلمين بشأن ما يروى عن تلك الحملات من جانب الصليبيين، إذ ما تزال رواياتهم ذات الوجه الآخر بشأن أحداث تلك الحملات تهيمن على الثقافة الإسلامية إلى اليوم.

الحملة الثانية

إذا كانت الحملة الصليبية الأولى تعرف "بالحملة الشعبية"، فإن ما ميز الحملة الثانية هو مشاركة العديد من الملوك الأوروبيين فيها، حيث سعت لمزيد من التوسع عما أحرزته الأولى. إلا أن النتائج عسكريا كانت مخيبة للآمال، إذ دحر الأتراك السلاجقة معظم الجيوش الملكية فى آسيا الصغرى قبل أن يصلوا إلى الأراضى المقدسة. وكما كان الوضع فى الحملة الأولى، فقد أدى التوغل المستمر لمجموعات جديدة عديدة من القوات العسكرية الغربية داخل الأراضى البيزنطية إلى تزايد مخاوف بيزنطة وارتيابها فى نوايا الصليبيين . وقد عمد الإمبراطور، ثانية، إلى تعطيل دخول الغربيين إلى الأراضى البيزنطية، ثم قام بحشدهم وإخراجهم بأقصى سرعة عبر البوسفور وفى الطريق جنوبا عبر الأراضى ذات السيادة التركية. وقد قامت القوات الصليبية القادمة من صقلية، فى تلك الآونة، بسلب العديد من المدن اليونانية، وذلك فى أثناء رحلتها صوب الشرق، مؤكدة بذلك مخاوف بيزنطة بشأن نواياهم الحقيقية.

وفى النهاية، فشل الصليبيون فى الاستيلاء على دمشق، باعتبارها هدفا رئيسيا ومحطا للأنظار، ولم يكن للحملة الثانية بذاتها شأن يذكر. ويذهب برنار من كليرفو إلى أن خطايا الصليبيين هى التى أدت إلى إخفاقاتهم. أما ثالثة الأثافى، فكانت حين وحد القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى القوى المسلمة بالمنطقة فى عام ١١٨٠، وقام باستعادة أورشليم من أيدى الصليبيين.

الحملة الثالثة

لقد أدت استعادة المسلمين الصادمة لأورشليم إلى توحيد أوروبا فى حملة صليبية ثالثة. وقد كانت استعادة صلاح الدين لها شبيهة جدا بأحداث سقوط المدينة فى أيدى المسلمين فى عام ٦٣٧ بقيادة الخليفة عمر بن الخطاب، إذ لم يلحق أهالى أورشليم المدنيين من المسيحيين إلا نزرا يسيرا من الضرر بعد دخول المسلمين المدينة، وهو الأمر ذاته حين فتح الخليفة لها. كذلك، فلم يتم المساس بالغالبية العظمى من كنائس المدينة، كما تمت مطالبة الصليبيين بدفع فدية للمسلمين. ومن الأمور التى ميزت الحملة الثالثة مشاركة الكثير من الرموز الملكية البارزة، كريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا، وفيليب الثانى ملك فرنسا آنذاك. وقد تحققت المخاوف والشكوك البيزنطية المستمرة، حين استولى ريتشارد، فى طريقه إلى البلاد المقدسة، على قبرص وانتزعها من قبضة الإمبراطورية البيزنطية. كذلك، فقد تهاوت النزاهة المزعومة للأوروبيين، وكذا ما روج له من تعاطف ومشاعر إنسانية لديهم ... حين وعد ريتشارد، أثناء حصاره لعكا، جميع المواطنين المسلمين بإعطائهم الأمان إن هم استسلموا، إلا أنه قد عمد،حين سقطت المدينة واستسلم أهلها، إلى قتلهم جميعا. وبعد إخفاقه فى استعادة أورشليم، أبرم ريتشارد اتفاقا مع صلاح الدين يقضى بتنظيم شروط ضمان انتظام قيام المسيحيين بالحج إلى المدينة.

الحملة الرابعة

كانت الشكوك الدائمة التى ساورت "اللاتين" و"اليونان"، كل منهما تجاه الآخر، وذلك خلال الحملات الصليبية الثلاث الأولى لتبلغ الآن أوجها. فقد نجم عن الحملة الرابعة العديد من الأحداث التى اكتنفها العار، وما زالت تحيا فى ذاكرة اليونانيين بما اصطبغت به من خزى وشنار. فبتجاهل مهمة تحرير أورشليم وإعادتها إلى حظيرة المسيحية مرة أخرى تجاهلا تاما، قام الصليبيون فى عام

١٢٠٤ بتوجيه اهتمامهم بعيدا عن أورشليم، وبالمقابل قاموا بالهجوم على القسطنطينية ذاتها لمدة أعوام عديدة تحت شعار "الكنيسة الرومانية"، وقاموا بسلب المدينة واحتلالها وتصريف الحكم بها. وكانت هذه، بحق، جائحة حضارية ... لحظة الافتراق السيكولوجى الأخير بين الشرق والغرب، وما انطوت عليه من أصداء لا حصر لها استمرت إلى يومنا هذا.

وحقيقة الأمر، فلم يوافق البابا "اينوسنت" الثالث أو يبارك مطلقا أى هجوم على القسطنطينية. على أن رجال الدين "اللاتينيين" القريبين من المشهد كانت تتجاذبهم نوازع أخرى، مثل حب المال، والطمع فى امتلاك السلطة، والرغبة فى تجاهل رؤية البابا وتجاوزها. وهنا، فإن المؤرخ اليونانى المعاصر الشهير، سبيروس فريونيس، يصف هجوم الصليبيين على القسطنطينية، فى السطور التالية :

"قام الجنود "اللاتينيون" بتعريض أعظم مدن أوروبا إلى موجات من النهب والسلب لا يمكن وصفها. فعلى مدار ثلاثة أيام، قاموا بالقتل والاغتصاب والنهب والتدمير، إلى الحد الذى كان سيجعل الوندال والقوطيين أنفسهم غير مصدقين ما جرى بالفعل. فقد أضحت القسطنطينية متحفا حقيقيا للفن القديم والفن البيزنطى، وسوقا كبيرة لثروات طائلة، إلى الحد الذى جعل اللاتينيين مذهولين مما وجدوا من ثروات عميمة. وبالرغم من تقدير أهالى البندقية للفن الذى اكتشفوه ومحافظتهم عليه ما أمكنهم إلى ذلك سبيلا (فقد كانوا أنفسهم أشباه بيزنطيين)، فقد قام الفرنسيون وآخرون بالتدمير من غير تمييز، ليستريحوا مقتسمين أقداح الخمر، ومنتهكين لأعراض الراهبات، فضلا عن قتلهم لرجال الدين الأرثوذكس. ولقد نفس الصليبيون عن كراهيتهم لليونانيين، على نحو كبير، بانتهاك قدسية أكبر كنيسة فى المسيحية. فلقد قاموا بتحطيم الحاجز الأيقونى الفضى الذى يفصل المذبح عن الجزء الأساسى للكنيسة، وتحطيم الأيقونات وإتلاف الكتب المقدسة فى "آيا صوفيا". كذلك، فقد أجلسوا على الكرسى البطريركى بغيا تؤدى أغانى رديئة فى حين كانوا يحتسون الخمر فى آنية الكنيسة المقدسة.

إن مشاعر العداء بين الشرق والغرب، والتى تواصلت حلقاتها عبر القرون، قد بلغت ذروتها فى المذبحة المروعة التى صاحبت غزو القسطنطينية. فقد كان اليونانيون على يقين بأن الأتراك أنفسهم، إذا كان قد كتب لهم الاستيلاء على المدينة، فلن يكونوا بمثل وحشية أولئك المسيحيين اللاتينيين وعنفهم. لقد أدت هزيمة بيزنطة، والتى كانت بالفعل تشهد انحسارا وتراجعا، إلى التعجيل بالفساد السياسى الذى نجم عنه أن أضحى البيزنطيون، فى النهاية، فريسة سهلة أمام الأتراك. إذا، فقد أدت الحملات الصليبية إلى انتصار "الإسلام" ... وهى نتيجة كانت، بالطبع، على النقيض تماما مما كانت النوايا معقودة عليه بادئ الأمر".

كان البابا اينوسنت الثالث يدرك تماما ما انطوت عليه تلك الهجمات اللاتينية على القسطنطينية من عواقب مستقبلية كارثية ... ذلك البابا الذى كان طموحه، فى الأجل الطويل، أن يعيد أواصر الوحدة واللحمة الكنسية ما بين الشرق والغرب، ولو تحت لوائه وقيادته. بيد أن نهب القسطنطينية قد أبطل أية إمكانية لإحداث مثل ذلك التقارب لفترة امتدت إلى نحو ألف عام، وهو مدى زمنى لم يكن ليدركه حينها. فكما كتب البابا نفسه :

"كيف يمكن إعادة الكنيسة اليونانية، التى ابتليت بمثل هذا الاضطهاد، إلى الوحدة مع الكنيسة اللاتينية أو تكريسها للكرسى الرسولى (البابوى)؟ إذ لم تشهد من اللاتينيين سوى نموذج الخراب والدمار والأفعال الظلامية إلى الحد الذى تمقتهم معه بأكثر مما تمقت الكلاب. ذلك لأنهم من يفترض أن يخدموا رسالة المسيح لا أن يخدموا مصالحهم الخاصة، هم من توجب عليهم إشهار سيوفهم بوجه الوثنيين، تقطر سيوفهم من دماء المسيحيين. إن اللاتينيين لم يحفظوا الدين، ولم يعبأوا بالاعتبارات العمرية وفروق النوع، إذ مارسوا الرذيلة والفاحشة على الملأ، ويمرأى ومسمع من العامة، تاركين العقائل، بل والراهبات نهشا ونهبا لبذاءة قواتهم الوحشية وفحشها. فبالنسبة لهم، لم يكن يكفيهم استنزاف ثروات الإمبراطورية وسرقة الشريف والوضيع ... بل كان عليهم بسط أيديهم على كنوز

وثروات الكنيسة بانتزاع النفائس الفضية من المذبح وتحطيمها إلى قطع لاقتسامها فيما بينهم، ناهيك عن انتهاك حرمة الكنيسة ومقدساتها واجتثاث الصلبان والتذكارات المقدسة".

بعد ذلك، عمد الصليبيون إلى تنصيب مطران فى المدينة. وفى هذه الأثناء، رفض المواطنون مرشح الصليبيين لاعتلاء سدة الإمبراطورية وانفجر الغضب الشعبى ضد اللاتينيين، إلا أن ذلك لم يمنع أن يعتلى إمبراطور لاتينى العرش فى القسطنطينية ليحكم الإمبراطورية لمدة سبعة وخمسين عاما، إلى أن سقطت المدينة فى أيدى البيزنطيين فى عام ١٢٦١ . ولم تنس الكنيسة الأرثوذكسية أيا من تلك الأحداث أو تغفر لمرتكبيها فعلاتهم، كما رفضت الجهود المتعاقبة لإحلال تسوية أو تأسيس اتحاد ثيولوجى بواسطة البابا فى أزمنة متفاوتة أعقبت نهب القسطنطينية. وقد صدرت أعلى الاعتراضات صوتا عن "الرأى العام" بالمدينة، الذى كان ليحط من قدر أى قس أرثوذكسى لمجرد التفكير فى التفاوض بشأن شروط محتملة للوحدة وفقا لإملاءات روما.

وبعد ذلك بنحو ثمانية قرون، وتحديدا فى عام ٢٠٠١، أعرب البابا يوحنا بولس الثانى للكنيسة الأرثوذكسية عن مشاعر أسفه خلال زيارته الأولى لأراض أرثوذكسية ... رومانية. وأخيرا، وفى عام ٢٠٠٤، تم قبول اعتذار البابا من قبل البطريرك المسكونى "بارتلميو الأول". وتشكل تلك المبادرات خطوات أولية هامة لتضميد جراح العلاقات الشائكة والمحتقنة فيما بين الشرق والغرب، والتى يعود تاريخها إلى قرابة الألفى عام. إن المواجهات ما بين روما والقسطنطينية خلال الحروب الصليبية لتحتل أهمية لا تقل فى المرتبة عن تلك التى تحتلها المواجهات فيما بين الإمبراطورية الشرقية من جهة، و"المسلمين" من جهة أخرى، بل غالبا ما تبزها، إذ تصدر عن رفاق مسيحيين كما تبدى ظواهر الأمور. إذاً، فقد أحدثت تلك الحروب الصليبية صدعا عميقا فى العلاقات ما بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية، والذى ربما فاق مشاعر الغضب الذى نثرت بذوره، آنذاك، بين العالمين

الغربى والإسلامى ... تلك الظاهرتان اللتان لا يزال العالم يعانى إرثهما إلى اليوم.

نظرة فاحصة

كان اهتمامنا، إلى الآن، منصبا على المظهر الدينى المعلن للصراعات ما بين الغرب والشرق والعالم الإسلامى. دعونا، إذا، نتناول التفسيرات البديلة للأحداث ذاتها والتى لا تنطوى على بعد دينى. تشير الحقائق التاريخية إلى وجود قوى هامة أخرى، كالنزعة إلى بسط النفوذ والهيمنة الغربية بالخارج، والتأثير القوى للتطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى أوروبا. فلو لم يكن ثمة "إسلام" – كونه الأساس المنطقى والمبرر الظاهرى للمغامرة الصليبية برمتها– أكان يمكن لشكل ما من الحملات الصليبية الغربية ضد الشرق أن ترى النور؟

لماذا تكون بعض الدوافع الدينية المعلنة للقوات الصليبية الغربية، فى جانب منها، موضعا للشك والارتياب؟ أولا : فإن الزمن الذى شنت فيه تلك الحملات يبدو غريبا. إن أورشليم قد سقطت فى أيدى قوات المسلمين فى عام ٦٣٨، بينما استحثت الحملات الصليبية الخطى استجابة لسقوط المدينة وكردة فعل بعد وقوع الحدث بخمسمائة عام. ولم تكن تلك المرة الأولى التى تفقد فيها المسيحية أورشليم بسقوطها فى أيدى غير المسيحيين : إذا قامت الإمبراطورية الساسانية الزرادشتية فى بلاد فارس بالاستيلاء على المدينة فى عام ٦١٤، وحرقت كنيسة القيامة، وقامت بالاستيلاء على "الصليب الحقيقى". وبعد ذلك بعدة سنوات، وتحديدا فى عام ٦٢٩، استعاد البيزنطيون المدينة ثانية، لتقع فى أيدى القوات العربية بعدها بتسعة أعوام. إذاً، كان المسيحيون قد فقدوا الأراضى المقدسة مرتين – قبل نحو خمسة قرون من الاستجابة الصليبية لما جرى.

وخلال فترة الحكم الإسلامى، مارس المسيحيون واليهود شعائرهم وطقوسهم التعبدية، فى الجزء الأعظم منها، بسلام وأمان فى أورشليم، فضلا عن انتظام

رحلات الحجيج المسيحيين إلى المدينة. وقد تم خرق ذلك التعايش السلمى لمدة وجيزة عند نشأة الدولة الفاطمية الشيعية، وانتقالها لحكم مصر فى بدايات القرن الحادى عشر الميلادى، حيث أمر الخليفة الفاطمى الجديد بتدمير الكنائس وهدم المعابد فى أورشليم، بما فيها كنيسة "القيامة". وقد أحجم الفاطميون لاحقا عن سياسة الاضطهاد تلك حين أدركوا حجم المنافع الاقتصادية والمالية الكبيرة التى ستعود على الدولة من السماح بإعادة بناء دور العبادة، واستئناف مسيرة رحلات الحج، وتدفق الحجيج إلى الأراضى المقدسة دونما عوائق. وعلى أية حال، فلعل تلك الفترة الوجيزة التى اصطبغت بمشاعر عدائية، وبمظاهر من عدم التسامح – قد أشعلت فى الغرب شرارة نيران بدت خامدة، وحركت المياة الراكدة لقضية طال النظر إليها لقرون عديدة على أنها ساكنة هادئة.

أما فى الغرب نفسه، فقد كانت ثمة قوى فاعلة جديدة أسهمت كمحفز اجتماعى لتدشين الحملات الصليبية. فقد شهدت أوروبا قرونا طويلة من تعاقب الغارات الداخلية المدمرة، فضلا عن المناوشات، بل والحروب الصريحة فيما بين مختلف القبائل الهمجية التى غزت وطافت أوروبا طمعا فى الأسلاب. وفى الوقت ذاته، فقد ولدت الهجمات الانقضاضية على أوروبا على يد الهنغاريين وقبائل الفايكنغ – الحاجة إلى أعداد كبيرة من الفرق المحاربة للدفاع عن حدود أوروبا. وبمرور الزمن، وبتقلص وتيرة التهديدات الخارجية، انحسرت الحاجة إلى تلك الجماعات المسلحة على نحو كبير، إلا أنهم استمروا فى تطوافهم وقتالهم لبعضهم البعض، إلى جانب نهبهم للمدن، وانتهاكهم للنظام العام. وقد جاهد البابا طويلا، ولسنوات عديدة، لإيقاف هجماتهم ضد الأهالى، ووضع حد لحروبهم المدمرة فيما بينهم، إذاً، فقد كانت هناك حاجة إلى متنفس لتصريف طاقاتهم العدوانية التوسعية. وفى تلك الأثناء، كانت الهجمات الصليبية ضد المسلمين قد أضحت مألوفة من خلال حملات الفرسان المسيحيين شمالى الأندلس ضد الإمبراطورية الإسلامية فى الجنوب، والتى طال حكمها للبلاد طويلا. (إلا أن طرد المسلمين

واليهود من الأندلس لم يتم إلا بعد نهاية الحروب الصليبية بزمن طويل، وتحديدا فى عام ١٤٩٢).

وفى خطابه بكليرمون، ألمح البابا ايربان الثالث إلى الحاجة لأن "يهب أولئك الذين درجوا على السرقة لأمد طويل ليصبحوا الآن فرسانا". ونحن ندرك جيدا ما للبلاغة الخطابية الدينية المشتعلة حماسة من أثر فاعل فى استنهاض الهمم واستنفار الحملات العسكرية ضد الأعداء أينما كانوا ومهما بعدوا. إن الرمزية الدينية "للكافرين" -دون "المسلمين"- وكون أفعالهم تعد إساءة للرب، لتعطى القاعدة وترسى الأساس العاطفى والأيديولوجى الرئيسى لشن تلك الحروب الخارجية. كذلك، فقد ناشد البابا المسيحيين مطالبا إياهم بالتضامن مع إخوانهم من مسيحيى الشرق الأوسط، والذين انتهى الحال بهم بالفعل بأن يذبحوا، هم والمسلمون، بأيدى تلك الفرق الصليبية. إذاً، فماذا كانت الدوافع الرئيسية التى حركت الضالعين فى تلك الحروب؟ لقد كان هؤلاء أطيافا شتى ومشارب عدة. أما البيزنطيون، فقد انتزعت الأراضى المقدسة من أيديهم بواسطة العرب المسلمين فى القرن السابع الميلادى، كما انتزعت منهم أراض أخرى لصالح المسلمين حين انحدر الأتراك السلاجقة فى قرون لاحقة من آسيا الوسطى، وتوغلوا فى أعماق الأناضول، مما أدى إلى تقلص حجم الإمبراطورية البيزنطية. وقد كانت القسطنطينية، آنذاك، فى مسيس الحاجة للعون العسكرى لمواجهة الجيوش التركية والعربية، وطالما ولت شطر الغرب لطلب المدد للذود عن حياض المسيحية والذب عنها. بيد أننا قد رأينا، آنفا، كيف تحققت بالكامل شكوك بيزنطة المبررة تماما فيما يتعلق بنوايا الغرب الحقيقية. وقد احتضن العديد من الملوك الغربيين، فضلا عن البابا، الأمل فى إضعاف شوكة الحكم البيزنطى اليونانى، وإعادة زمام إدارة الإمبراطورية الشرقية إلى أيدى "اللاتينيين"، أى إلى "قبضة روما". إذ إنه لو قدر لروما أن تنجح فى انتزاع الأراضى المقدسة من براثن الحكم الإسلامى، فحينها لن تكون فقط قد أعادت "المسيحية" إلى ذلك الإقليم، بل ستكون حصنا لتوسع قوتها

ضد القسطنطينية ذاتها. ومن ذا الذى كان بإمكانه التكهن بأن يؤدى ذلك إلى إعادة توحيد الإمبراطورية المقسمة، وذلك تحت رعاية روما الكاملة هذه المرة؟ إذاً، ألم تكن القسطنطينية، فى سعيها لاجتذاب مناصرة الغرب لها ضد المسلمين، تدعو الثعلب لحماية حظيرة الدجاج؟!

كذلك، فقد كان هناك العديد من العوامل الاقتصادية. إن المدن التجارية الكبرى، كالبندقية وجنوا، كان لها نصيب كبير ودور بارز فى تنامى وتيرة النشاط العسكرى شرقى المتوسط. وقد مثل ذلك صفقة رابحة لكلا الطرفين تحت شتى الظروف، إذ سيبلغ الطلب على السفن والمؤن والإمدادات اللوجيستية أقصى حدوده، علما بأن تينك المدينتين مؤهلتان، بجدارة، للقيام عن طيب خاطر وباقتدار بدور الوسيط فيما بين الأطراف المتقاتلة.

وفى أثناء الحملة الصليبية الأولى، انبثقت احتياجات جيوبوليتيكية إضافية. فقد أدى الاستقرار الاجتماعى المتزايد فى أوروبا إلى نشأة ارستقراطية قتالية أوروبية جديدة، كانت نواة "الحملة الصليبية الملكية" وعصبها. فعقب وصولهم إلى المشرق، قام بعض "الأمراء" الأوروبيين بتأسيس أربع ممالك مستقلة لهم على أراض إسلامية بامتداد ساحل المتوسط من آسيا الصغرى، وحتى الأراضى المصرية. وقد مثلت تلك الممالك، والتى عرفت بالإمارات الصليبية، وهى : أورشليم، وأنطاكية، والرها، وطرابلس – ربما النمط المبكر من الكولونيالية الأوروبية الفعلية فى قلب إقليم الشرق الأوسط. وبينما كانت حدود تلك الممالك وثرواتها ما بين مد وجزر من معركة إلى أخرى، فقد استمرت ثلاث منها تحيا كإمارات صليبية لما يزيد عن ١٥٠ عاما، لتسقط جميعها فى النهاية فى قبضة الجيوش الإسلامية. كذلك، فقد كان إنشاء قوة صليبية لاتينية فى تلك الممالك المستحدثة يعنى، عرضيا، طرد البطاركة الأرثوذكس من أورشليم وأنطاكية، وهى خسارة فادحة لمركزين دينيين هامين منيت بها الكنيسة الأرثوذكسية.

لذا، فقد كان سقوط الأراضى المهزومة فى قبضة المسلمين مبررا مقبولا لما حدث. ولكن، هل كان ثمة شك فى أن المغامرين الأوروبيين، فى لحظة زمنية ما، لم يكونوا ليقوموا بأنشطة استيطانية وتوسعية مماثلة فى الشرق الأدنى، إذا كانت المنطقة بأسرها قد سقطت فى أيدى المسيحيين الشرقيين، وليس فى قبضة المسلمين؟ إن ذرائع أخرى كانت لتساق، خاصة وقد كانت شتى القوى الملكية الأوروبية تتقدم لتنتزع أجزاء من الأراضى البيزنطية فى الوقت ذاته. وبحق، فقد كان يمكن أن تتخذ "المذبحة اللاتينية" كمبرر جيد إذا لم تكن أهداف المسلمين الأكثر وضوحا وجلاء قائمة حينها. وبعبارة موجزة، فإن القوى الأوروبية كانت تامة التسليح، موفورة العتاد فى تأهبها للانطلاق أينما وجدت. كذلك، كان من المستبعد تماما تصور إعداد حملة صليبية تحت لواء الكنيسة اللاتينية وإرسالها لمواجهة الكنيسة اليونانية، والتى كانت مزدراة من قبل الأولى. وبالفعل، فقد وقع هجوم على الكنيسة الشرقية خلال الحملة الصليبية الرابعة، بيد أن الهدف المعلن كان، بالطبع، مواجهة ما هو إسلامى.

ولقد كان التبادل الثقافى والتفاعل الحضارى فيما بين الإسلام والغرب ينحو لأن يكون محدودا بعض الشىء نظرا لتمسك الطرفين بتراثهما والتصاقهما بمجتمعاتهما. وقد كان الصليبيون مشدوهين بما بلغته الحضارة الإسلامية من رفعة وازدهار، كما أعجبوا بفنون الإسلام الرفيعة ومنتجاته النسجية، والتى كان لها جميعا تأثير جلى فى فنون أوروبا وإبداعاتها. وبينما كان ينظر إلى المسلمين، بصفة عامة، على أنهم "كافرون"، انبثقت وسط تلك النظرة أسطورة راجت فى أنحاء الغرب بشأن القائد المسلم صلاح الدين الأيوبى، الذى استعاد أورشليم. فقد كان ينظر إليه كتجسيد لصفات النبل والشهامة والفروسية. أما المسلمون، فلم تكن نظرتهم إلى الصليبيين جيدة، إذ اعتبروهم أجلافا يفتقرون إلى التهذيب والصقل، ذوى رائحة كريهة تنبعث منهم، غير معتادين على ما درج عليه المسلمون من استخدام "الحمامات العامة" لاعتبارات النظافة وأغراض حفظ الصحة، كما عدوهم

أفظاظا فى سلوكياتهم ومعاملاتهم.

كذلك، فمن المثير ملاحظة أن الحملة الصليبية الأولى قد شهدت أول استخدام للمناداة باعتماد "الجهاد" وتبنيه من قبل المسلمين لصد الغزاة الغربيين. ونشأ ذلك الاستخدام وفقا لما ذهب إليه "على بن طاهر السلمى" -وهو عالم شرعى وفقيه لغوى دمشقى- إذ لم ير الصليبيين بمعزل عن، بل كجزء من، تهديد خطير للحضارة الإسلامية، خاصة وأن تلك الحملات قد تزامنت مع الصراع المستمر الذى دارت رحاه على أرض الأندلس بين الولايات المسيحية الصليبية، وبين تلك الإسلامية. وكانت الحروب الصليبية قد شهدت أول مواجهات متوالية فيما بين المسلمين والغربيين على أراض إسلامية، أما قبل ذلك، فقد واجهت القوات المسلمة، على وجه العموم، شعوبا شرقية كان أفرادها يعملون كمرتزقة بيزنطيين. ولقد كانت بيزنطة ملء السمع والبصر، ولكن العالم الإسلامى كان يشرع، بالكاد، فى اعتبار التحدى ذى الصيغة الأشمل من قبل الغرب الأوروبى. وكما أرجع البابا مسئولية هزيمة الصليبيين فى الحملة الصليبية الثانية إلى خطايا الصليبيين أنفسهم، فقد عزا "السلمى" هزيمة المسلمين خلال الحملات الصليبية إلى ابتعاد المسلمين عن جوهر الدين الحق، وطالبهم أولا "بالجهاد الداخلى" أو "الجهاد الأكبر"- بضبط النفس وإعلاء القيم الروحية فوق غرائز الإنسان الدنيا للتمكن من قيادة حرب إسلامية ناجحة (جهاد) ضد الصليبيين. وقد صور كلا الطرفين الصراع فيما بينهما على أنه حرب مقدسة متعامين عن مظاهر الصراع الجيوبوليتيكية. ولقد تجاهل القادة المسلمون نداء "السلمى" للجهاد، ولم يتم الالتفات إلى ذلك "المصطلح"، وربطه بالغزوات العسكرية إلا بعد سنوات عديدة من الحروب الصليبية، حين جسد القائد صلاح الدين تلك الرابطة.

الحروب الصليبية الشمالية

إذا كان ثمة شك حول ماهية الحملات الصليبية وكنهها أو حول طبيعتها التوسعية الشرهة، فإن الجانب السياسى المتسمة به قد اتضح بجلاء فى حملات صليبية أخرى وقعت فى الآونة ذاتها، دون أن يكون لها أدنى علاقة بالإسلام أو المسلمين. فبالتزامن مع الحملة الصليبية الثانية، والتى دارت وقائعها بعد نحو خمسين عاما من الحملة الأولى، انبثق متنفس جديد لتلك الروح الصليبية داخل أوروبا ذاتها. فالقبائل الجرمانية التى لم ترغب فى تلبية نداء البابا للزحف نحو الأراضى المقدسة قد علمت أن بوسعها القيام بما عليها من التزامات دينية عن طريق شن حملات وغزوات ضد ما تبقى من قبائل سلافية وثنية فى البلطيق بغرض تحويلها نحو اعتناق المسيحية.

وقد أعلن برنار من كليرفو، المتحدث الرئيسى بشأن خطط البابا الصليبية، أن الحاجة تعن إلى محاربة السلاف الوثنيين إلى أن يتم قتلهم أو قيامهم باعتناق المسيحية. ولكن، بطبيعة الحال، لم تقتصر تلك الحملات على "هداية" الوثنيين. فقد كان الفرسان الجرمان الكاثوليك متحمسين لإزالة الأحقاد القديمة، والتى ارتبطت ببعض الخلافات الإثنية والنزاع على أراض بعينها، مع نظرائهم وشركائهم فى الحماسة الدينية المفرطة فى بولندا الكاثوليكية. كذلك، فقد كانت مملكتا الدانمرك والسويد المسيحيتان متحمستين لبسط نفوذهما جنوبا فى منطقة البلطيق، فحتى روسيا المسيحية الأرثوذكسية كانت هدفا لهما. وكنتيجة لتلك الحملات الصليبية المتعددة، "فإن شرق البلطيق قد شهد تحولات جراء تعرضه لتلك الحملات العسكرية.

فقد تعرض الليفونيون اللاتفيون والاستونيون أولا، ثم السلاف والفنلنديون فيما بعد للهزيمة والاحتلال والإبادة على أيدى جماعات من الجرمان والدانمركيين والسويديين".

إذاً، فقد كانت الحملة الصليبية الثانية مبررا دينيا لقيام القوى الجرمانية ببسط نفوذها وإحكام قبضتها الاقتصادية شرقا داخل البلطيق. ولقد أصدر البابا يوجين الثالث، فى عام ١١٤٧، مرسوما بابويا يخلع قيم روحانية واستحقاقات متساوية على جميع من انخرط فى الحملات الصليبية، سواء إلى الأراضى المقدسة أو ضد السلاف الوثنيين.

وفى عام ١٢٤٢، انطلقت كتيبة من الفرسان الجرمان الكاثوليك باتجاه "نوفغورود"، الإمارة الروسية الأرثوذكسية، بالقرب من "سان بطرسبرغ" الحالية، ولكنها هزمت، حيث حوصر عدد كبير من الفرسان الجرمان كثيفى العتاد فى الثلوج خلال معركة دارت رحاها على مياه بحيرة "لادوغا" المتجمدة. وقد تم تصوير تلك الواقعة فى الثقافة الروسية الشعبية بأنها واحدة من عدة انتصارات للأرثوذكسية، كهبة من السماء، فى دفاعها عن نفسها ضد قوى الشر للكاثوليكية الغازية – وهو مفهوم وتصور راسخ فى العقلية القومية الروسية. لذا، فحتى فى أوروبا، فإننا نلحظ صراعا جيوبوليتيكيا ثلاثى الأبعاد فيما بين الإسلام، والمسيحية الغربية، والمسيحية الشرقية الأرثوذكسية.

والملاحظ، باستدعاء ما ذكر آنفاً، أن البابا هو من دعا إلى كل تلك الحملات والحروب التى امتدت لنحو مائتى عام. فالبابا قد قام بالفعل بالتحريض، وبتوجيه وقيادة التحركات السياسية والعسكرية للأمراء الأوروبيين. ولا نجد مطلقا أدنى تشابه حين مقارنة ذلك بالمرجعيات الدينية الإسلامية ورموزها، والذين تنتفى مشاركاتهم فى توجيه أية تحركات للجيوش الإسلامية. (فحين اعتلاء الخليفة لسدة الحكم، وبخاصة خلال القرون القليلة الأولى التى أعقبت نشأة الإسلام، تكون أولى مهامه تدبير الأمر واستخدام نفوذه وقوته الدنيوية). ولا شك فى أن العلماء المسلمين قد باركوا الغزوات العسكرية للجيوش المسلمة، إلا أنهم لم يكونوا أبدا المحرضين عليها، أو الموجهين لدفة قيادتها. وهنا نلحظ، كما شهدنا آنفا، كيف ارتبطت الدولة والكنيسة ارتباطاً وثيقاً على امتداد الجزء الأعظم من التاريخ

المسيحى، وهو الأمر قليل الحدوث فى التجربة الإسلامية.

الحملات الصليبية فى ميزان التاريخ

تجدر الإشارة إلى أن المصادر التى تناولت تاريخ الحملات الصليبية بأى من لغات العالم، كانت بالأساس مصادر غربية. فالحملات الصليبية كانت، فى مجملها، حروبا غربية خيضت لأسباب غربية وفق سياق سياسى واجتماعى واقتصادى أوروبى. إذ كانت أوروبا، فى الحقيقة، مستعدة للقيام بمهمة كبيرة فى الشرق قادرة على امتصاص وإعادة توجيه جميع الدوافع المتباينة للمناخ السياسى والاجتماعى الأوروبى المحتقن. فقد كانت أوروبا الكاثوليكية مستعدة للشروع فى حملتها التوسعية المحمومة ضد السلاف الوثنيين، وكذا ضد اليهود والمسيحيين الأرثوذكس الشرقيين، أو المسلمين – وذلك بغض الطرف عن الدين السائد فى إقليم الشرق الأوسط آنذاك.

ولقد كان معظم المسلمين ممن كانوا لا يعيشون بالقرب من ملتقى الطرق التى ارتبطت بمسيرة الحملات الصليبية، أو ممن لم ينخرطوا فى تلك الصراعات الحربية– يجهلون ما حدث على نحو كبير. وحين اشتعال الحروب الصليبية، لم يكن المسلمون ينظرون إليها على أنها "حدث تاريخى" مثلما نظر إليها الأوروبيون وقتذاك، أو كما ينحو الفكر المعاصر إلى رؤيتها الآن. وحتى بالنسبة للمسلمين الذين تضرروا جراء المعارك المتواصلة للسيطرة على سواحل المشرق، فقد كانوا ينظرون إلى "الصليبيين"، أو كما كانوا يعرفون آنذاك "بالفرنجة" – على أنهم فصيل آخر من المرتزقة البيزنطيين، أو تلك الميليشيات الإثنية التى سيقت للخدمة من تخوم الإمبراطورية البيزنطية.

وكانت تلك الفترة هى التى تدوولت فيها لفظة "الفرنجة" للإشارة إلى الأوروبيين فى مجملهم. وما زالت تلك اللفظة مستخدمة على امتداد آسيا المسلمة للإشارة إلى الأجانب القادمين من الغرب، أياً ما كانت جنسياتهم وأعراقهم.

وأخيراً، فقد أدت الحملات الصليبية إلى خلق إطار من المواقف والاتجاهات المتبناة من كل طرف إزاء الطرف الآخر، وبصفة خاصة فى الغرب. وكما أوردت "كارول هيلينبراند"، الباحثة فى الشئون الصليبية:

"إن اتصال الأوروبيين بالعالم الإسلامى واحتكاكهم بالمسلمين كان له أثر فى إنعاش ذائقتهم تجاه الكثير من السلع كالعاج والمصنوعات المطعمة بالمشغولات المعدنية وغيرها من الكماليات الواردة من العالم العربى. ولعل أهم المصنوعات التى اشتهروا بها : الحرير الدمشقى، والأنسجة القطنية، فضلا عن ضروب أخرى من المنسوجات المخملية كالموسلين والساتان والتفتا...

ولدى عودتهم إلى أوطانهم عقب تلك الحملات التى استهدفت الأراضى المقدسة، انصب حديث الصليبيين على البلدان التى رأوها بما لها من غرائبية وسحر أخاذ. أما ظاهرة "الاستشراق" بداية من القرن الثامن عشر الميلادى وحتى يومنا هذا، وتجلياتها فى الأدب والفن الغربيين، والتى تناولها إدوارد سعيد باقتدار فى زمننا المعاصر – فقد استقت زادها واستمدت زخمها من تراث الصليبيين. فالعالم الإسلامى كان موطن الصحارى الشاسعة، والمدن ذات الأسوار، والنساء المرتدين الحجاب، والحريم، والخصيان، والحمامات العامة، والأسرار، وما ليس بمألوف من حيوان، كما كان موطن اللغات، والكماليات، والدين المغاير... وبعبارة موجزة، فقد كان العالم الإسلامى موطن الأخطار والغموض الرومانسى".

حين سئل عن رأيه فى الثورة الفرنسية، أورد شواين لاى – رئيس الوزراء الصينى الشهير خلال خمسينيات القرن العشرين ملاحظته ذائعة الصيت، "إن الوقت ما زال مبكرا جدا للحديث عنها". إذاً، فلا ينى الزمن أن يعكس الأحداث الماضوية وفق أنماط مغايرة، والتى تبوح لنا بالملاحظات المعاصرة كبوحها بأحداث سابقة بعينها. فبمرور الزمن، خضعت الحملات الصليبية للكثير من التأويلات ووجهات النظر، الإيجابية والسلبية. ففى العالم الغربى اليوم، ثمة نزعة ضمن أولئك

ذوى التوجه العلمانى لرؤية الأحداث على أنها تمثل ذراع التوسع الغربى، واعتبار تلك الحروب صفحة قاتمة من صفحات التاريخ الغرب. أما المراقبون المسيحيون ذوو النزعة المحافظة، فيعمدون إلى تبنى وجهات النظر التى تبرر التوسع الغربى فى الأراضى المقدسة كاستجابة للتحديات الخطيرة التى تهددت المسيحية بفعل التوسعات الإسلامية المستمرة حينذاك. إذا، فإن الجدل الدائر الآن فى الغرب حول الإسلام يجد جذوره فى استحضار الحوادث التاريخية.

وبالنسبة للمسلمين، فقد كان التحول فى المنظور أكثر حدة وأبعد أثرا. فاليوم، يلقى المسلمون نظرة على الماضى ليروا أن الحملات الصليبية قد اشتملت على أولى بذور النزعة الإمبريالية فى سياق السياسات الغربية. وقد وصف أسامة بن لادن، ضمن آخرين، الممارسات الغربية الحالية فى "الحرب العالمية ضد الإرهاب" بأنها عدوان "صليبى صهيونى" ضد الأراضى الإسلامية. وللأسف، فقد استخدم جورج بوش الابن المصطلح ذاته حين أشار إلى "تلك الحروب الصليبية، تلك الحرب على الإرهاب"، فى الأسبوع الذى أعقب تفجيرات الحادى عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ . أما الأوروبيون المدركون لجميع ما انطوت عليه فترة الحملات الصليبية تاريخيا، فقد راعهم استخدام بوش لذلك المصطلح.

كذلك، فلا شك أن رؤيتنا ووجهات نظرنا بشأن الحروب الدائرة حاليا بالشرق الأوسط، يغلب عليها عدم الموضوعية، إذ ترتكن إلى استشعارنا للطرف الذى تأثر واستجاب للاستنفار أو الاستفزاز الأول، فى تتابع ارتدادى لانهائى من إلقاء اللوم وتحديد المسئولية – تلك المشكلة الأبدية للسياسة وأحداثها الماضوية، بصفتها مشكلة دائرية قوامها أى العاملين هو السابق، وأيهما اللاحق. إن الإسلام، اليوم، هو اختزال مناسب ومريح لتوصيف التعقيدات الجيوبوليتيكية الهائلة التى انطوت عليها الوقائع الصليبية. كذلك، فإن الحملات الصليبية، اليوم، هى ركن من أركان المنظومة التصادمية فيما بين الشرق والغرب. إلا أننا قد لاحظنا بعضا من أسس ذلك الصدام قبل نشأة الإسلام، والمتمثل فى الثورات الإقليمية داخل الامبراطورية

البيزنطية ضد القسطنطينية، وقد احتضنت تلك الحركات التصادمية العديد من الرايات والألوية الدينية (الهرطقية) كمحركات ورموز لما كان، فى الأساس، منافسة محمومة لامتلاك أسباب القوة واستلاب الأراضى. وقد وجدت هذه المصادمات قبل الإسلام، وزامنت نشأته وتطور مسيرته، وما زالت قائمة إلى الآن فى إقليم الشرق الأوسط. فهل يمكننا أن نطرح السؤال : أكان يمكن أن تقع حروب صليبية لو لم يكن ثمة إسلام؟ ربما لم تكن لتقع على النحو ذاته ووفق المسار نفسه، ولكن ربما استطاعت أوروبا الطموح المتململة أن تشق طريقها حثيثا صوب الشرق، فى أى من الحالات. إذ قامت، بالفعل، بشن حروب ضد بلدان حدودية أخرى فى أوروبا. فإذا لم يكن ثمة إسلام، لكانت المصادمات والمواجهات فيما بين روما والقسطنطينية أكثر مباشرة وأمضى حدة عما كانت عليه بالفعل آنذاك.